الدكتورة: فاطمة سوالمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-
البريد الإلكتروني: soualmifatima@gmail.com
جامعة الانتماء: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
كلية أصول الدين
قسم العقيدة ومقارنة الأديان

عنوان الملتقى الوطني:

القيم الجمالية للنص التربوي في الفكر الإسلامي الغرب الإسلامي أنموذجا

عنوان المداخلة:

جماليات التربية الروحية في النص الصوفي شروح الحكم للشيخ زورق أنموذجا

من تنظيم: كلية أصول الدين

الملخص:

تسعى هذه المداخلة للكشف عن مضامين جماليات التربية الروحية عند الشيخ زروق من خلال شروحه للحكم العطائية التي ذاع صيتها وكثر نسخها لمقصديتها الأخلاقية والتربوية لصقل النفوس وتخليصها من الحجب المادية والعلائق الدنيوية، ومن ثم العروج بها في مدارج الصفاء الروحي الذي تضيء أنواره جنبات النفس فتشع جمالا وبهاء يضفي على القلوب الارتياح والسكينة والرضا. وفي محاولة لاستنطاق قراءة الشيخ زروق للحكم العطائية والبحث عن مكامن جمالياتها التربوية.

The Aesthetics of Spiritual Education in the Sufi Text: Explanations of the Wisdom by Sheikh Zurq as a Model

Abstract:

This paper aims to explore the aesthetic aspects of spiritual education in Sheikh Zurq's explanations of the Hikam (wisdom sayings) of Ibn Ata' Allah al-Iskandari, which have become widely known and frequently reproduced due to their ethical and educational purpose of refining souls and freeing them from material veils and worldly attachments. This process leads to the elevation of the soul through stages of spiritual purity, whose light illuminates the heart, radiating beauty and splendor that grants peace, tranquility, and contentment to the soul. The study attempts to uncover the interpretation of Sheikh Zurq’s reading of the Hikam and explore the aesthetic dimensions of its spiritual education.

أولا: التعريف بصاحب الحكم ابن عطاء الله السكندري

هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، يكنى بتاج الدين وبأبي الفضل وبأبي العباس ولد بالإسكندرية ولذلك اشتهر بابن عطاء الله السكندري وفي كتابات بالإسكندري أو الإسكندراني أما تاريخ مولده فالراجح أنه في عام 658هـ. وكانت وفاته في سنة 612هـ.[1]

يعد ابن عطاء الله السكندري من أعلام المدرسة الصوفية وأحد أقطاب الطريقة الشاذلية التي مثلت التصوف السلوكي العملي الذي انتشر في القرن السابع الهجري، وإليه يرجع الفضل في نشر مبادئ وأصول الطريقة الشاذلية التي تعتمد في اتجاهها الصوفي على أعمال ورياضات روحية يقبل عليها السالك للطريق كالصوم والصلاة والذكر والاعتكاف.

وعرف عن أبي الحسن الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية أنه لم يصنف كتبا في التصوف كغيره من الصوفية الأوائل، ولما سئل قال: "كتبي أصحابي" وما تركه من تراث تمثل في جملة من الأحزاب والأوراد والأذكار والوصايا لمريديه وأتباعه في مقدمتهم أبو العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري.

وأشار أبو الحسن إلى كتب في التصوف سار عليها في تربية أتباعه وتلاميذه كختم الأولياء للحكيم الترمذي(ت3هـ) وقوت القلوب للمكي (ت397هـ)، الرسالة للقشيري (ت465هـ)، والاحياء للغزالي (ت505هـ) ما يستدل به على توجهه الصوفي السني الملتزم بالقرآن الكريم والسنة، الذي تابع فيه من سبقه من الصوفية في "الرياضات والمجاهدات المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاما فيرقى منه إلى غيره"[2] ومما يؤكد توجهه الصوفي السني اعتماده القرآن الكريم والسنة أساسا لطريقته، يقول أبو الحسن الشاذلي «إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف»[3]

نقطة التحول في حياة ابن عطاء الله

---

(1)-السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دط، مطبعة الموسوعات، القاهرة، دت، ج1، ص210

-ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص474. [2]-

(3)-الشعراني: الطبقات الكبرى، دط، دار الفكر العربي دت.، ج2، ص40

كان ابن عطاء الله في بداية أمره من المعترضين على التصوف وأهله، وذلك بسبب نشأته[4] وطبيعة تكوينه العلمي، التي أهلته للصدارة في علم الفقه، يضاف لذلك ما رآه ابن عطاء الله السكندري من حال الصوفية في تلك الفترة حيث طغت عليهم السلبية واليأس من الحياة، فاعتزلوا الناس والمجتمع وعاشوا في الخوانقه والرباط[5]. والواقع أن الذي وجه ابن عطاء هذه الوجهة، هو الحادثة التي جمعته بأحد خصومه وشيخه فيما بعد–أبو العباس

و عن مجريات تلك الحادثة يقول ابن عطاء الله «... وكان سبب اجتماعي به (بالشيخ أبي العباس) أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل (أحد أتباع أبي العباس)، دعني أذهب أنظر إلى هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات ولا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال: الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان، وان شئت قلت: الأول عبادة والثاني عبودية والثالث عبودة، وان شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق، أو نحو هذا فما زال يقول: وان شئت قلت إلى أن بهر عقلي وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر الهي فأذهب الله ما كان عندي».[6] فكان ذلك الاجتماع نقطة تحول في حياة الرجل، ومن يومها صحب أبو العباس المرسي –صاحب الطريقة الشاذلية– ولم يفارقه حتى توفي سنة 686هـ.

بعد وفاة شيخه غادر ابن عطاء الله الإسكندرية متوجها إلى القاهرة، وقد اتخذ بالجامع الأزهر مجلسا لهداية الناس وإرشادهم، قال الذهبي: «وكانت له جلالة عظيمة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل، وكان يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي بكلام يروح النفس، ومزج كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم فكثر أتباعه وكانت عليه سيما الخير».[7] واستمر على هذا الحال واعظا للناس وداعيا للطريقة الشاذلية إلى أن وفاه الأجل سنة 709هـ.

وعنه يقول الشيخ زروق: "تاج الدين وترجمان العارفين ...كان أعجوبة زمانه في التصوف. كما قيل:

---

[5]– الخوانق: مفردها خانقاه وهي كلمة فارسية وتعني دار أو دور يختلي فيها أهل الصوفية للتعبد (أنظر: تقي الدين المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دط، مؤسسة الفرقان للتراث، لندن، 1424هـ–2003م، ج4، ص82).

الرّبط: مفردها رباط وهي بيت الصوفية أيضا، بمعنى المرابطة فيه (أنظر: تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مرجع سابق، ج4، ص89).

[6]–ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن، مصدر سابق، ص70.

[7]–ابن العماد الحنبلي: : شذرات الذهب في أخبار من ذهب،تحقيق لجنة التراث العربي د ط، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دت.، ج6، ص19–20.

حلف الزمان ليأتين مثله: حنثت يمينك يا زمان فكفر.

من أهم كتبه: التنوير في إسقاط التدبير، لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي، تاج العروس، الحكم.

ثانيا: التعريف بالشيخ زروق شارح الحكم:

يعد من أبرز علماء التصوف في المغرب الإسلامي، شخصية علمية تجلت في أبعاد معرفية ثلاث، إذ جمعت بين الممارسة الصوفية والمدارسة الحديثية والوعظ الفقهي في نسق فكري متكامل يسعى لوضع الفكرة الصوفية ضمن إطار المنظومة الشرعية، ويلقب بمصلح الصوفية نظرا لجهوده الكبيرة في إصلاح البيت الصوفي وتنقيته من الذين دخلوا في مسمى الصوفية من بعض المنتسبين من المريدين الجهلة الذين أساءوا للطريق الصوفي بالغلو والشطح والخرافة والشعوذة.

والشيخ زروق هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، الشهير ب"زروق"، ولد بفاس عام 846 هـ وتوفي عام 899 هـ، أما لقب زروق فلم يكن اسم العائلة وإنما ورثه عن جده الذي كان أزرق العينين. قال رحمه الله :إنما جاءني من جهة الجد، كان أزرق العينين واكتسبه من أمه وكانت شريفة[3] ...

نشأ يتيما حيث توفي والداه بعد أسبوع من ولادته بسبب الطاعون الذي ضرب فاس والذي عرف بوباء عزونة[8] فتعهدت برعايته وتربيته وتعليمه جدته، وكانت ذات دين وعلم وصلاح .

يقول عنه المناوي في طبقات الشاذلية: "عابد من بحر العبر يغترف، وعالم بالولاية متصف، تحلى بعقود القناعة والعفاف، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والأصول والخلافة، خطبته الدنيا فخاطب سواها، وعرضت عليه المناصب فردها وأباها"[9]

له العديد من المؤلفات التي جمع فيها بين الفقه والحديث والتصوف، كما اشتهر بتفسيراته العديدة للحكم.

ثالثا: التعريف بالحكم العطائية:

-الحكم العطائية:

-الحسن بن محمد بن القاسم، طبقات الشاذلية الكبرى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م، ص117. [8]-

- [9]- أحمد زروق:شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ط1، بيت الحكمة، العلمة الجزائر، 2010م، ص11.

من المصادر الأساسية في التصوف وضعها ابن عطاء الله السكندري للسائرين في منازل الأرواح الذين تتطلعوا نفوسهم للفوز بمقام القرب من الله، ألفها ابن عطاء الله السكندري في شبابه كما جاء في كشف الظنون، حيث قام بعرضها على شيخه المرسي (ت 686هـ) وقد أثنى عليها بقوله: «يا بني لقد أتيت في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء» وهي أشهر مؤلفاته على الإطلاق.[10]

و قد ضمنها خلاصة آرائه في التصوف حالا ومقاما، ولاقت اهتماما كبيرا من قبل علماء في مختلف العصور فأقبلوا عليها بالشرح والدراسة والتحليل حتى بلغت شروحها أكثر من نيف وثلاثين شرحا[11]

ومن أشهر هذه الشروح: شرح الحكم للشيخ زروق الذي أغرم بجمال بيانها وجمال مبانيها وجمال مقاصدها فكانت تلازمه في إقامته وفي ترحاله، يقول في إحدى شروحه: "عباراته رائقة واضحة جامعة، وإشاراته فائقة جليلة نافعة، تثلج الصدر وتشرح الخواطر وتبهج السامع لها والناظر إليها، في حلاوة مقاطع وسهولة منازع وصعر حجم، واتساع علم وتحقيق حكم"[12] ولذا سنركز في دراستنا على إبراز مضامين الجمال في السلوك الروحي في الخطاب الحكمي كتعبير عن رؤية وجودية تنأى به عن السلبية والتشاؤمية التي طبعت الخطاب الصوفي.

ثانيا: مظاهر جماليات التربية الروحية لشروح الشيخ زروق:

يعكس مفهوم التربية الروحية في النص الصوفي اهتمام الصوفية بالنفس البشرية والعمل على صقل الذات الإنسانية بتجاوز العلائق البدنية الجسمانية والتغلب على العوائق الدنيوية التي تتيح لها الارتقاء في مدارج الصفاء الروحي الموصلة للكمال الأخلاقي الذي يهيئ النفس لاستشعار وتذوق الجمال المبثوث في ثنايا الأكوان ومنه الوصول لإدراك ومعرفة الجمال الكلي والمطلق فالله وحده المستحق للجمال المطلق، جمال الذات وجمال الصفات وجمال الأفعال، قال تعالى: " **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ" الشورى: 11** وقال جلا وعلا: **"وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ "56**

قال ابن عباس: "إلا ليعرفوني". وهذا يكشف عن المقصد الأسمى والهدف الأجل من الجمال عند الصوفية وهو معرفة الخالق، وهو من المسالك التي أشار إليها القرآن الكريم للاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى، إذ أن إدراك جمال الوجود وجمال الصنعة هو أقرب المسالك لإدراك جمال الخالق، وأن هذا الكون بكل ما فيه من مظاهر الجمال شاهدٌ على وجودِ خالقه وبديع صنعه، قال تعالى:" **أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ**

---

[10]– حاجي خليفة:كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دط، مطبعة المعارف التركية، 1360هـ-1941م، مج1، ص675.

[11]–أحمد زروق:شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص15.

[12] –

إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ" ق: 6-7-8،

وقوله الجق: **"وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ"** النمل: 88

وتعد الحكم العطائية من المتون الصوفية التي رسمت الطريق للسائرين نحو السمو الروحي ورسخت في النفوس أساسيات العروج إلى عرش الكمالات وفق مقاربة ذوقية تعتمد السلوك الجمالي أوصافا لبلوغ خلة الكمال، وذلك عبر الانتقال بين مجموعة من المقامات التربوية الروحية نخص بالذكر منها: مقام التوبة ومقام الزهد ومقام التواضع

-مقام التوبة:

1-مقام الخوف من الله:

يتجلى الخوف من الله كحالة روحية جمالية تقود الإنسان نحو النقاء الداخلي والتطهير النفسي الذي يحرر الروح من أسر الأهواء ويطهر النفس من الأرجاس والآثام، يقول ابن عطاء الله: «...العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلع الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد تواعد أهل معصيته بعقوبته فخافوا من الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم، فكان خوفهم إشفاقا على نفوسهم من عقوبة الله...»[13].

. ذلك أن المتفرد بصفات الكمال والجلال والجمال يبعث في النفس الإحساس بالمهابة والخوف من عظمة الله وقدرته وقوته ، وفي الوقت نفسه يبعث فيه الأمل شوقا إلى رحمته وطمعا في عفوه مما يدفع ذلك الإنسان إلى ترك المعاصي والتخلي عن الرذائل، يقول ابن عطاء الله: «لا تتعد نيّة همّتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال»[14].

ويذكر الشيخ زروق في شرحه لهذه الحكمة مانصه: «...فالكريم ذاتا ووصفا وفعلا لا تتخطاه آمال المؤمنين إلى غيره بطلب ذلك الغير ولا بالطّلب منه، لأن جماله يغني عن اختيار غيره، وإحسانه يصرف الوجه له دون غيره، لا سيّما ولا غيره إلا به وله، فالرجوع إليه أولى بكل حال لمن يعقل، فقد جاء في بعض الآثار: يقول الله تعالى: عبدي اجعلني مكان همك أكفك كل همك، ما كنت بي فأنت في محل القرب،

---

[13]-ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، مصدر سابق، 112.

[14]- الشيخ زروق، مصدر سابق، ص80.

وما كنت بك فأنت في محل البعد، فاختر لنفسك»[15].

بهذا يحث الشيخ زروق المؤمن بالتوجه بالكلية لله وحده مهما كثرت أخطاؤه وعظم ذنبه ويزرع فيه الأمل والسكينة والقوة ويبعد عنه القلق واليأس لاعتقاده بعظمة الله ولطفه وقدرته على الاستجابة لتحقيق آماله.

مقام الافتقار إلى الله:

الافتقار إلى الله يعبر عن حالة روحية سامية تتضمن أبعادا جمالية حيث يتحول الشعور بالفقر إلى مصدر يسهم في تعزيز قيم إيجابية لدى العبد ، **يقول ابن عطاء الله السكندري:** «كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متحققا»[16].

وفي شرح الشيخ زروق لهذه الحكمة يقول: «أوصاف الربوبية أربعة هي: الغنى، والعزة، والقوة. والتعلق بها أن تكون ناظرا إليها معتمدا عليها دون نظر لشيء سواها. وأوصاف العبودية أربعة هي: الفقر، والذلّ، والعجز، والضعف والتحقق بها أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها في حال من أحوالك.

ثم التعلق بأوصافه يقتضي التحقق بأوصافك، والتحقق بأوصافك يفضي بك إلى التعلق بأوصافه لكن يختلف البساط، فتارة يغلب عليك الغنى بالله، وتارة يغلب عليك الفقر إلى الله انبسطت بإحساسه، وإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب»[17].

يشير الشيخ زروق في شرحه لهذه الحكمة إلى المخرجات الجمالية لعلاقة بين ذات انفردت بكل صفات الكمال والجمال وأخرى وصفت بالفاقة والاضطرار والتي تتمثل في:

التواضع والتخلص من الغرور: فالمحتاج في إيجاده إلى غيره دليل على ضعفه وعجزه، وهنا يتحول التواضع من مجرد فضيلة أخلاقية إلى عقيدة راسخة فتصبح فاقة الإنسان واضطراره إلى غيره دليل على الاعتقاد بوحدانية الله، فيتخلص من مشاعر الكبرياء والاستعلاء ويقبل على الله بالاعتماد والتوكل والتسليم والرضا مما يضفي على حياة الإنسان جمالا داخليا يمنحه السكينة والاطمئنان.

إدراك النعمة والشكر:

---

[15]–المصدر نفسه، ص80.

[16]–الشيخ زروق، مصدر سابق، ص171.

[17]–الشيخ زروق: شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ط 1، بيت الحكمة، العلمة الجزائر، 2010، ص171.

يعد من أساسيات السلوك الصوفي تستدعيه النفوس الكريمة لتعرب عن تقديرها للمنح والعطايا يقينا منها بفضل المنعم الخالق وضرورة حمده على نعمه وآلائه. وفي اصطلاح الصوفية "الشكر هو عكوف القلب على محبة المنعِم، والجوارح على طاعته وجريانُ اللسان بذكره والثناء عليه"[18]

وإدراك النعم عند ابن عطاء الله السكندري كما جاء في الحكم هو حالة وجودية شاملة: "شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، شكر اللسان بالتحدث بنعم الله تعالى لقوله سبحانه: "**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**" الضحى: 11 وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله، قال الله تعالى: "**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ**" سبأ: 13 وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة بأحد من العباد هي من الله، قال تعالى:" **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**"النحل: 53 ۝

ويشير ابن عطاء الله إلى أن الاشتغال بالشكر مؤذن بدوام النعم واستمرارها قائلا: «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها».[(19)]

ويعلق الشيخ زروق عن هذه الحكمة بقوله: " شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء: حفظها عن الزوال وتغيير الحال، وزيادتها في الحال وبركتها في المآل، واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال"

يظهر الشيخ زروق في شرحه لهذه الحكمة اهتماما بالغا بفضيلة الشكر حيث بين أن إدراك المنح والألطاف الإلهية والوعي بتجلياتها في حياة العبد توقظ فيه مشاعر الامتنان واليقين بأن كل ما يملكه من النعم والخير هو من فضل الله ورحمته مما يضفي على الروح حالة من الجمال الداخلي يتجلى في معان الرضا والقناعة والتواضع.

الخاتمة:

ختاما نقول، إن جماليات التربية الروحية في شروح الحكم العطائية للشيخ زروق تجسد نموذجا للارتقاء الروحي عبر تعاليم السادة الصوفية، مما يعكس فهمهم العميق لآليات التعامل مع النفس الإنسانية وطبيعتها الظلمانية بما تحمله من الأهواء والشهوات والغفلة. كما تبرز هذه الشروح مسارات التربية الروحية التي تجعل الروح أكثر نقاء وصفاء وجمالا.

---

[18]- ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، ج2، ص136.

[(19)]- عبد الله الشرقاوي، المنح القدسية على الحكم العطائية، مصدر سابق، ص68.

قائمة المصادر والمراجع

1. السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دط، مطبعة الموسوعات، القاهرة، دت.
2. لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي، دط، دد، القاهرة، 1322هـ.
3. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة التراث العربي، دط، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دت.

4. بن محمد بن القاسم الحسن: طبقات الشاذلية الكبرى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
5. زروق أحمد: شرح الحكم العطائية، تحقيق عبد الحليم محمود، ط1، بيت الحكمة، العلمة الجزائر، 2010م.
6. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دط، مطبعة المعارف التركية، 1360هـ-1941م، مج.